وظيفة الأدب في نظريّة الأدب الإسلاميّ وتطوّرها

سامر نزار كيالي، د. بتول أحمد جندية

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة إدلب

الملخَّص

اهتمّتْ نظريّة الأدب الإسلاميّ بوظيفة الأدب منذ انطلاقتها في منتصف القرن العشرين، وقد تناولت كثير من الأبحاث وظيفة الأدب في نظريّة الأدب الإسلاميّ، لكنّها لم تتتبّع آراء النقّاد على نحوٍ مفصّلٍ عبر مراحل النظريّة.

وتكمن إشكاليّة هذا البحث في السؤال الآتي: ما وظيفة الأدب في نظريّة الأدب الإسلاميّ وما التطوّر الذي حصل فيها خلال مراحل النظريّة؟ وحاول البحث أن يعرض مفهوم وظيفة الأدب وأن يحدّد وظائف الأدب الإسلاميّ الرئيسة، وهي: الوظيفة الاجتماعيّة، والوظيفة الجماليّة، والوظيفة الذاتيّة، كما أشار إلى الآثار الأخرى التي يُحدِثُها، وقد حاول البحث لفتَ النظر إلى الوظائف المشتركة مع الآداب الأخرى وإلى النقاط التي تميّز بها فيما يتعلّق بالوظيفة.

الكلمات المفتاحيّة: الأدب الإسلاميّ، نظريّة الأدب، وظيفة الأدب، تطوّر الوظيفة.

The function of literature in the theory of Islamic literature and its development

Samer Nizar Kayyali, Batoul Ahmad Jindia

Department of Arabic Language - the Faculty of Arts and Humanities
Idlib University

Abstract

The theory of Islamic literature has been concerned with the function of literature since its inception in the middle of the twentieth century, and many researches have dealt with the function of literature in the theory of Islamic literature, but it has not tracked the critics' opinions in a detailed way through the stages of the theory.

The problem of this research lies in the following question: What is the function of literature in the theory of Islamic literature, and what is the development that took place in it during the stages of the theory? The research attempted to present the concept of the function of literature and to define the main functions of Islamic literature, they are: the social function, the aesthetic function, the subjective function, as well as to the other effects that it creates.

Keywords: Islamic literature, theory of literature, the function of literature, the development of the function.

مقدمة:

إنّ وظيفة الأدب من القضـايا المهمّة التي عالجتها نظريّة الأدب الإسـلاميّ منذ انطلاقتها في منتصـف القرن العشـرين، وقد كانت رؤية النظريّة لوظيفة الأدب في البداية مجملةً وعامّةً إلى أن فصّل الحديث فيها عماد الدين خليل ومحمّد إقبال عروي، وبعد عام 1990 ركّز النقّاد على جوانب محدّدة في الوظيفة لتتبلور رؤية واضـحة للنظريّة في هذه المسـألة، فأكّد النقّاد التلازم والتوازن بين وظيفة الأدب النفعيّة وطبيعته الجماليّة، فخلود الأعمال الأدبيّة عبر التاريخ بسبب الطبيعة والوظيفة معًا.

وظيفة الأدب الإسـلاميّ عبر مراحل النظريّة عمومًا تجمع بين المنفعة والمتعة الجماليّة وترفض التطرّف في جانبٍ منهما على حساب الآخر، إضافةً إلى ذلك فقد أشار النقّاد إلى وظائف أخرى للأدب الإسلاميّ.

وقد ميّز البحث مرحلتين رئيستين مرّت بهما نظريّة الأدب الإسلاميّ، الأولى منذ انطلاق النظريّة حتّى عام 1990 م، وقد شـهدت هذه المرحلة تأسـيس النظريّة وبداية انتشـارها وتعزيز وجودها من خلال رابطة الأدب الإسـلاميّ العالميّة، والمرحلة الثانية بعد عام 1990 م، وقد شـهدت هذه المرحلة زخمًا في نشـاط النظريّة على مسـتوى النقّاد والأبحاث، فقد تحوّلت من الآراء العامّة والأبحاث المجملة إلى الدرس المفصّل، وأصبحت تهتمّ بضبط المفاهيم وتوضيحها.

وبناءً على هذا التقسيم توزّع البحث على ثلاثة مطالب رئيسـة؛ فالمطلب الأوّل: مفهوم وظيفة الأدب، والثاني: وظيفة الأدب الإسلاميّ قبل عام 1990 م، والثالث: وظيفة الأدب الإسـلاميّ بعد عام 1990 م إضـافةً إلى خاتمة تجمل الأفكار وتقدّم بعض الاستنتاجات.

أهمِّيَّـة البحـث: تكمن أهمِّيَّـة البحـث في مراجعتـه لوظيفـة الأدب الإسـلاميّ وتوضيحها والكشف عن الثابت والمتغيّر فيها خلال المراحل التي مرّت بها النظريّة.

منهج البحث: استعان البحث بالمنهج التاريخيّ في المقام الأوّل لتتبّع مفهوم الأدب الإسلاميّ خلال فترةً تاريخيّةً محدّدةً، وتقسيم البحث كان تبعًا لتاريخ الأفكار وليس تبعًا

للنقّاد، وقد استعان أيضًا بالمنهج التحليليّ في مراجعة الآراء واستنباط الأفكار منها للوصول إلى الأهداف التي ينشدها البحث.

الدّراسات السّابقة: كثيرةٌ هي الأبحاث التي تناولت مفهوم الأدب الإسلاميّ عمومًا في مراحل سابقةٍ، وتناولت هذه الأبحاث في أثنائها وظيفة الأدب الإسلاميّ كما فعل وليد قصّاب في كتابه "الوسطيّة في منهج الأدب الإسلاميّ" فقد ناقش فيه وظيفة الأدب تحت عنوان "نظريّتا الطبيعة والوظيفة الشكليّة والخلقيّة"، وقريبٌ من ذلك ما فعله إسماعيل المشهداني في كتابه "علم الأدب الإسلاميّ" إذ ناقش فيه وظيفة الأدب تحت عنوان "وظيفة الأدب/ طبيعة الأدب"، وهناك بحثٌ بعنوان "في الأدب الإسلاميّ: المعنى والوظيفة" لجاسم الفارس قدّم فيه رؤيةً مختصرةً لوظيفة الأدب الإسلاميّ، ولا يكاد يخلو بحثٌ في الأدب الإسلاميّ من الإشارة إلى وظيفة الأدب الإسلاميّ، لكنّها في كثير من الأبحاث لا تتعدّى الإشارة العارضة والعرض العامّ، ولم نقف على بحثٍ يتتبّع آراء نقّاد نظريّة الأدب الإسلاميّ في وظيفة الأدب بصورةٍ مستقلّة ويوضّح تطوّرها خلال المراحل التي مرّت بها النظريّة.

أوّلًا: مفهوم وظيفة الأدب:

إنّ الأدب نشاطٌ يتبع تصوّرًا كلّيًّا للحياة ـ كحال نشاطات الإنسان كلّها ـ ويستمّد قيمته ووظيفته وطبيعته ومجالاته من هذا التصوّر، والحديث عن وظيفة الأدب متشعّب الارتباطات والعلاقات ولا يمكن أن نفصله بسهولةٍ عن هذه الارتباطات، فوظيفة الأدب ترتبط بطبيعته الجماليّة وكلّ واحدةٍ منهما تؤثّر في الأخرى، كما أنّها ترتبط بالتصوّر الدينيّ أو الفلسفيّ الذي تستند إليه النظريّة الأدبيّة ويلتزمها الأديب في أدبه، وتتحدّد وظيفة الأدب أيضًا بمفهوم الحرّيّة والالتزام، وبطريقة النظر إلى الواقع والتعاطي معه تأثّرًا وتأثيرًا، انخراطًا وانكفاءً، تفاؤلًا وتشاؤمًا، نقلًا وتغييرًا، كما ترتبط وظيفة الأدب بالنظرة إلى الشكل والمضمون أيضًا.

ولعلّ أبرز ارتباطٍ لوظيفة الأدب هو ارتباطها بطبيعة الأدب، فوظيفة الأدب تحدّد طبيعته ابتداءً، لكنّهما تتّحدان في الإبداع الأدبيّ وترتبطان ارتباطًا عضويًّا، وهذا ما أكّده آوستن وآرن فالأدب عنده جميلٌ ومفيد وانفراد صفة منهما يمثّل استقطابًا مرفوضًا في وظيفة الأدب، والعمل الذي يؤدّي وظيفته بنجاحٍ تندمج فيه المتعة والفائدة اندماجًا كلّيًّا،[1] ولذلك من الطبيعيّ عدُّ رسالة الأدب ووظيفته جزءًا من طبيعته واعتبار الفنّيّة والجمال جزءًا من

وظيفته، ومن الصعب فصم هذا الاندماج، وما يحرّك المبدع في هذا الاتّجاه أو ذاك هو موقفه العامّ من قضايا الوجود والفنّ.

لكنّ الأديب عادةً لا يقف عند الحدود النظريّة لهذه المسألة في أثناء انشغاله بإنتاجه الأدبيّ، وإنّما يجسّد رؤيته النظريّة بصورةٍ تطبيقيّةٍ ويبدع بقدرٍ كبيرٍ من العفويّة من غير أن يفصِلَ بين طبيعة الأدب الجماليّة ووظيفته.

وقد تطرّفت بعض النظريّات في اهتمامها بالجانب الشكليّ الجماليّ للأدب وإهمال وظيفته وإنكارها ورأت الأدب هدفًا لذاته ولا وظيفة له في الحياة والواقع وأعلنتْ شعار "الفنّ للفنّ"، في حين أنّ نظريّات أخرى قد تطرّفت في الاتّجاه المعاكس تمامًا فاهتمّت بوظيفة الأدب وأهملت الجانب الشكليّ الجماليّ متجاهلةً أنّ وظيفة الأدب هي التي تُملي عليه تكوينه الجماليّ،[1] وإنّما عددناه تطرّفًا لأنّه يناقض تكوين الأدب وتاريخه من جهةٍ ولأنّه أسرف في التفرّد والاستقطاب من جهةٍ ثانية، وإمعانًا في هذا التلازم بين وظيفة الأدب وطبيعته الجماليّة فقد جعل آوستن وآرن وظيفة الشعر الأولى والرئيسة هي الوفاء لطبيعته.[2]

وقد درج النقّاد على تسمية أثر الأدب "بالوظيفة"، لكنّنا نميل إلى التمييز بين مصطلح "الوظيفة" ومصطلح "الأثر"، فالأوّل عامٌّ يقصده الأديب ويتبنّاه أمّا الثاني فخاصّ يتحدّد بعد إنجاز النصّ الأدبيّ وقد يقصده الأديب وقد لا يقصده، إذ يساعد في ظهوره وتشكّله عوامل خارج النصّ، كالإعلام والمتلقّي والظروف الاجتماعيّة والحضاريّة التي وُلِدَ فيها النصُّ، فالأديب يقصد وظيفةً للأدب لكنّه لا يحيط علمًا بالآثار كلّها التي سيحدثها إبداعه، ومجموع الآثار التي يحدثها النصّ تشكّل وظيفته المُتحقّقة التي قد تطابق قصد الأديب وقد تنزاح عنه، وتتفاوت الآثار في الظهور والضمور تبعًا للعوامل التي تشكّلها فتختلف الوظيفة في طريقة تحقّقها من نصٍّ إلى آخر مع أنّها تحمل الاسم ذاته كالوظيفة الاجتماعيّة أو الوظيفة الجماليّة.

إنّ الأدب ذو طبيعةٍ مركّبةٍ ومجالاتٍ متنوّعةٍ، فهو خطاب جماليٌّ وفكريٌّ وعاطفيٌّ ما يجعل آثاره متعدّدة الأوجه، وربّما تختلف فاعليّة الأدب وآثاره من نصٍّ إلى آخر ومن ظرفٍ إلى آخر، ويبدو لنا من الضروريّ أن نميّز بين الأثر الذي يصاحب الأدب ويتجلّى

1 من النوع الأوّل السرياليّة ومن النوع الثاني الواقعيّة.

واضـحًا ويرتبط أكثر بقصـد الأديب والأثر الذي يأتي عرضًـا ويكون غير مباشـرٍ ويرتبط بأسـبابٍ خارج النصّ، فالأوّل هو الأجدر بمسـمّى "الوظيفة"، أمّا الثاني فهو متعدّدٌ وغير لازمٍ عن الأعمال الأدبيّة كلّها، ويمكن أن نسميه "أثرًا".

ثانيًا: وظيفة الأدب الإسلاميّ قبل عام 1990 م:

يرى سيّد قطب أنّ مهمّة الأدب الرئيسة هي تغيير الواقع تجاه الأفضل والإيحاء الدائم لخلق صورٍ متجدّدةٍ من الحياة وكي يتحقّق ذلك لا بدّ من الصدق في تصوير الإنسان وفي تصوير الأهداف التي تليقُ به.[3] ويرى الكيلاني أنّ وظيفة الأدب الأساسيّة هي السموّ بالأرواح والأذواق والتأثير في حركة الحياة من خلال تحريك العواطف واتّخاذ المواقف، فالكيلاني يبيّن آليّة التأثير والتغيير التي يعمل بها الأدب، ويرى أنّه وسيلةٌ ومسؤوليّةٌ في الوقت ذاته ويقتضي أثرًا هادفًا من غير أن يفرّط بالمتعة، ونجاح الأدب، كما يرى الكيلاني، مرهونٌ بقدرته على جلب المتعة والمنفعة وهذه غاية الفنّ مؤكّدًا أنّه عندما اقترب الفنّ من هذه الغاية تمكّن من إحداث هزّاتٍ عنيفةٍ، فالأدبُ وسيلةٌ نظيفةٌ لغايةٍ نبيلةٍ،[4] وكذلك أبو الحسن الندوي يرى أنّ هدف الأدب هو التأثير في النفوس والقلوب، والأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة،[5] كما يرى الكيلاني أنّ الفنّ من عوامل بناء الحياة السعيدة إذا ما انبثق عن التصوّر الإسلاميّ مضيفًا أنّه ينبغي علينا أن نلتزم بالفنّ الهادف إلى الحبّ والخير والجمال.[6]

ولأنّ وظيفة الأدب الرئيسة لدى النقّاد المؤسّسين هي التأثير في الحياة وتغيير الواقع نحو الأفضل ـ والإنسان هو المستهدف لإحداث هذا التغيير ـ فقد أكّد سيّد قطب أنّ الأدب الإسلاميّ ينبغي أن يغلّب قوّة الإنسان على ضعفه، ولذلك فقد لا يحفل كثيرًا بتصوير الإنسان في حال ضعفه ولا يبرز ذلك أو يزيّنه،[7] وهذا ما أكّده محمّد قطب أيضًا مبيّنًا أنّ الأدب ينبغي أن يشيد أكثر باللحظات الرائعة الشفّافة من حياة الإنسان، فهدف الحياة ليس مجرّد الاستمرار وإنّما الوصول إلى مرتبة الجمال والكمال.[8]

وقد نظر عماد الدين خليل إلى وظيفة الأدب الإسلاميّ من زاويةٍ أخرى، فرأى أنّ الأدب يوصل رؤية الإسلام وتصوّره للحياة، وهو ما أطلق عليه "الوظيفة العقيديّة"، لكنّه ميّز في نقل الرؤية الإسلاميّة بين آليّة الدعاة ـ التي تعتمد على الأفكار والمفاهيم المجرّدة ـ وآليّة الأدباء التي تعتمد على الصورة المشخّصة الموحية والتعبير عن التجربة الحيويّة المعيشة، ويؤكّد خليل أنّ تحقّق هذه الوظيفة بفاعليّةٍ منوطٌ بالجمال والتأثير، ويعدُّها من أخطر الوظائف ويمكن إدراج الوظائف الأخرى كلّها فيها، أي أنّ الوظائف الأخرى هي الجوانب التي تتجلّى فيها الوظيفة العقيديّة، فهي وظيفةٌ كلّيّةٌ والوظائف الأخرى متفرّعةٌ عنها.[9]

ويضيف خليل أنّ هذه الوظيفة تتحقّق في جانبين: الأوّل بناء الرؤية الإسلاميّة بناءً جماليًّا مؤثّرًا، فالنصّ الأدبيّ من خلال حضوره الجماليّ وتأثيره يمكن أن يجسّد قيم التصوّر الإسلاميّ في صورٍ من الحياة الإسلاميّة تؤثّر في المتلقّي بحضورها وتشكّلها الجماليّ، والثاني هدم التصوّرات التي تتعارض مع الرؤية الإسلاميّة هدمًا جماليًّا، يقول خليل: "إنّ القصيدة أو القصّة أو المقالة أو الرواية أو المسرحيّة إذا ما أتيح لها أن تمارس نقدًا جماليًّا مؤثّرًا للمعطيات والمذاهب الوضعيّة التي تسعى لاستعباد الناس للآلهة والأرباب والوضّاعين من دون الله.. وإذا ما أتيح لهذه الأعمال أن تهدم ـ بعبارةٍ أخرى ـ هدمًا جماليًّا مؤثّرًا تلك المعطيات فإنّها ستكسب المعركة لصالح الإسلام.. ولن تكون في نهاية التحليل سوى أعمالٍ إسلاميّةٍ يمكن توظيفها عقيديًّا".[10]

أمّا الوظيفة السياسيّة عند خليل للأدب الإسلاميّ فيمكن أن تتحقّق من خلال خلق حدٍّ أدنى من التوحّد الإسلاميّ في الإحساس والرؤية والتجربة، فخطابه موجّه إلى الشعوب الإسلاميّة جميعها، وإبراز الموقف من قضايا الأمّة الأساسيّة على المستوى السياسيّ يجعل الشعوب الإسلاميّة تشعر بانتمائها المشترك وقضاياها المشتركة ومصيرها المشترك.[11]

أمّا الوظيفة الاجتماعيّة التي ينهض بها الأدب الإسلاميّ حسب خليل فهي تحصين المجتمع المسلم من التفكّك والتحلّل وإغناء تجربته الاجتماعيّة لاستعادة ممارساتها الأصيلة وقيمها

المفقودة، والوظيفة النفسيّة هي تقوية الإنسان المسلم وتحصينه تجاه ضغوط المخاوف والعقد والإسقاطات التي تعيق تقدّمه، والوظيفة التاريخيّة للأدب الإسلاميّ تكمن في حفظه التجارب الإسلاميّة من الضياع والتزوير بطريقته الأدبيّة الخاصّة، أمّا الوظيفة المنهجيّة فتتمثّل في تحقيق التوازن في طرح المعطيات الإسلاميّة بين الفكر والوجدان إذ إنّ التعبير الأدبيّ أكثر حيويّةً وتأثيرًا في طرح القضايا، أمّا الوظيفة الأخيرة للأدب الإسلاميّ التي يذكرها خليل فهي الوظيفة التربويّة وتتحقّق بدءًا بخلْق أعلى مستوًى من الانضباط الخلقيّ وانتهاءً بتنمية الحسّ الجماليّ للإنسان المسلم، فالجمال في الرؤية الإسلاميّة يرتبط بالمعايير الأخلاقيّة وبقيم الحقّ والخير.[12]

إنّ الوظائف الكثيرة التي ذكرها خليل لا تعدو كونها آثارًا تفصيليّة يُحدثها النصّ الأدبيّ على المستوى التربويّ والنفسيّ والسياسيّ والتاريخيّ وغير ذلك، وهي تتفاوت في ظهورِها من نصٍّ لآخر تبعًا لعوامل كثيرةٍ، ونرى أنّها آثار تابعة لوظائف الأدب الرئيسة وليست وظائف مستقلّةً عنها.

كما أشار محمّد إقبال عروي[2] إلى وظيفة الأدب الإسلاميّ ورأى أنّها وظيفةٌ تاريخيّة واجتماعيّة تتمثّل في الشهادة على القضايا المتفاعلة في الحياة كلّها؛ فهي وظيفة إدانةٍ وتبشيرٍ بما هو أفضل، ويضيف عروي أنّ الأدب الإسلاميّ يوجب هذه الوظيفة الاجتماعيّة وإلّا فإنّه لن يخرج عن إطار "في كلّ وادٍ يهيمون"[13]، وقد ربط عروي بين وظيفة الأدب والالتزام؛ فالأدب مسؤول عن أربع وظائف: أوّلها الوظيفة الذاتيّة إذ ينمّي أشواق العاطفة ويهذّبها فالأدب مسؤول عن تغذية العاطفة في الإنسان من خلال التجارب الشعوريّة التي يعرضها، وثانيها الوظيفة الاجتماعيّة فيقدّم الأدب التغيير الاجتماعيّ اللازم لنقل المجتمع نحو الأفضل، وثالثها الوظيفة الأدبيّة أو الفنّيّة فالأدب يحافظ على العناصر الفنّيّة التي تمنح الكلام صفة الأدبيّة وينمّيها فيشكّل امتدادًا متطوّرًا عبر الزمن، وأخيرًا الوظيفة التصوّريّة

[2] هذه الإشارة من محمّد إقبال كانت قبل عام 1990 م ولذلك أوردناها في هذا المطلب.

إذ يلتزم الأدب الإسلاميّ بالرؤية الإسلاميّة تجاه الكون والحياة والإنسان، وهذه الوظيفة هي التي تؤطّر الوظائف السابقة.[14]

كما يردّ عروي على دعاة "الفنّ للفنّ" بقول الناقد الروسيّ تشرنيشفكي: "إنّ الأدب يضع نفسه ضرورةً في خدمة تيّارٍ معيّنٍ من الأفكار وهو عاجزٌ عن التملّص من هذه الوظيفة التي تكمن في ذات طبيعته، وإنّ أتباع نظريّة الفنّ الخالص والذين يسعون إلى جعل الفنّ شيئًا بعيدًا عن مشاغل هذا العالم لهم إمّا على خطأ وإمّا إنّهم يضمرون مقاصدهم...".[15]

إنّ آراء هؤلاء النقّاد حول وظيفة الأدب الإسلاميّ عامّةٌ وواضحةٌ وتتّسق مع رؤيتهم لطبيعة الأدب الإسلاميّ الفنّيّة والقيميّة، فالأدب مفيدٌ وجميلٌ في الوقت ذاته، ونلاحظ تركيزهم في هذه المرحلة على وظيفة الأدب النفعيّة، أمّا الوظيفة الجماليّة فلم تُسمَّ بوضوحٍ لكنّ ذلك لا يعني أبدًا أنّهم يتنكّرون لها وإنّما كانت الإشارة إليها خفيّةً غالبًا، وقد كان عماد الدين خليل ومحمّد إقبال عروي أكثر عمقًا وتفصيلًا في وظيفة الأدب الإسلاميّ.

ثالثًا: وظيفة الأدب الإسلاميّ بعد عام 1990 م:

يؤكّد النقّاد في هذه المرحلة تأكيدًا قويًا تلازم وظيفة الفنّ (المنفعة) وطبيعته (الجمال)، فيرى شلتاغ عبّود في قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم "إنّ من البيان سحرًا وإنّ من الشعر حكمةً"[16] إشارةً ـ في كلمة حكمة ـ إلى المضمون الهادف الباني للكيان الإنسانيّ والاجتماعيّ الذي ينبغي أن يحمله الأدب الإسلاميّ، ويرى أيضًا إشارةً أخرى ـ في كلمة سحر ـ إلى الشكل الفنيّ الذي يجب أن يكون جميلًا مؤثّرًا، ولا بدّ من التوازن بين الهدف والفنّ، ويضيف عبّود أنّ الفنّ نشاطٌ إنسانيّ ومن الطبيعيّ أن تتبع وظيفته وظيفة الإنسان في التصوّر الإسلاميّ الذي يستند إليه هذا الأدب، وهي تحقيق عبوديّته لله والاستخلاف في الأرض وإعمارها كما أمره الله عزّ وجلّ.[17]

وكذلك الأمر فإنّ أبا بكر حميد يؤكّد أنّ رسالة الفنّ هي المتعة والجمال الذي يرتقي بذوق الإنسان ويسمو بروحه، ولا وجود لفنٍّ لا يحمل رسالةً.[18]

وكان وليد قصّاب شديد التركيز على هذا التلازم بين طبيعة الفنّ الجماليّة ووظيفته النفعيّة، فهو يرى أنّ الكلمة في أقلّ درجاتها محرّضةٌ على الفعل، والشكل الفنّيّ ليس هدفًا بذاته وإنّما هو وسيلةٌ لتقديم الفكر تقديمًا باهرًا مؤثّرًا، ولا يمكن أن نهمل الجانب الفنّيّ لأيّ سببٍ، ولا بدّ أن تلتقي الرؤية الفكريّة النابعة من تصوّرٍ إسلاميّ بالفنّ حتّى يغدو الأدب أدبًا إسلاميًا، فنظريّة الأدب الإسلاميّ حسب قصّاب تتبنّى الفنّيّة والوظيفة وتتّخذ موقفًا وسطيًا متوازنًا يجمع بين الجمال والفكر فلا تناقض بين الطبيعة والوظيفة، ولذلك يرى قصّاب أنّ إبداع أدبٍ إسلاميّ يحتاج إلى قدرةٍ كبيرةٍ، والانحياز إلى طبيعة الفنّ الجماليّة ووظيفته النفعيّة معًا أصعب من الانحياز إلى إحداهما دون الأخرى، لكنّ خلود الأعمال الأدبيّة عبر التاريخ كان بسبب الطبيعة والوظيفة معًا ولم يكن بسبب واحدةٍ منهما فقط، ويرى قصّاب أنّ هذا أقصى ما يمكن أن يحقّقه الأدب إذ يشمل تأثيره جوانب حياة الإنسان جميعها، فيلتقي مع الدين في رسالته ويعينه في أدائها.[19]

ويرى إسماعيل المشهداني أنّه من الأفضل أن ندخل الوظيفة الجماليّة في إطار وظائف الأدب لأنّه مزدوج الغاية وطبيعة الأدب ووظيفته متلازمتان والاعتماد على واحدةٍ دون الأخرى يُعَدُّ سوء فهمٍ لوظيفة الأدب الإسلاميّ فوظيفة الأدب نشر قيم الخير والحبّ والجمال،[20] فالأديب يقصد في نصوصه تشكيل صورٍ جماليّةٍ تلبّي في المتلقّي حاجته إلى تذوّق الجمال ومعاينته، وهي تلبّي قبل ذلك حاجة الأديب نفسِه إلى التعبير عن تجاربه الشعوريّة تعبيرًا جماليًّا ومشاركتها مع الآخرين.

وإزاء هذا الموقف تجاه وظيفة الأدب الإسلاميّ كان من الطبيعيّ أن يرفض نقّاد الأدب الإسلاميّ ومنظّروه مبدأ "الفنّ للفنّ" رفضًا قاطعًا، فقد وصفه قصّاب بأنّه خرافةٌ ولا وجود عمليًّا له،[21] ويرى نصر الدين دلاوي أنّه في الحالات التي يتظاهر فيها الفنّ باللامبالاة ويدّعي أنّه من أجل الفنّ والجمال فإنّه يؤدّي وظيفةً اجتماعيّةً ـ كما يقول أرنولد هادرز ـ وهي أنّه يهيّئ للناس وسيلةً للتعبير عن خوائهم وفراغهم، وليس هناك فنٌّ لا يحمل قيمًا ولا يقول شيئًا فالفنّ مواكبٌ لحركة الناس.[22]

نلاحظ أنّ نظريّة الأدب الإسلاميّ تتبنّى هذا التلازم بين وظيفة الأدب وطبيعته وتؤكّده تعاريفها للأدب الإسلاميّ، بيد أنّ الممارسة النقديّة عند بعض النقّاد لم تلتزم أحيانًا بهذه الرؤية، إذ تغاضوا عن مستوى الفنّيّة مقابل الوظيفة في بعض الأعمال النقديّة، مخالفين

بذلك رؤية النظريّة،[3] لكنّ منظّري الأدب الإسلاميّ قد حذّروا من التفريط بفنّية الأدب والتنكّر لطبيعته لأنّه لن يكون هناك أدب بدونها.

إنّ الاهتمام بفنّيّة الأدب وجماله يضمن قدرًا أكبر من تحقّق وظيفة الأدب ووصولًا أقوى للرسالة التي يحملها، وإذا ما أرادت نظريّة الأدب الإسلاميّ أن تحقّق وظيفة الأدب بفاعليّةٍ أكبر فعليها أن تتعمّق أكثر في بحث فنّيّة الأدب وجماليّاته وآليّات تأثيره وأن تفرز أشكالًا وأدوات تعبيرٍ جماليّةً إضافةً إلى ما هو موجودٌ اليوم، فالظرف الحضاريّ وطبيعة الحياة وحال المتلقّي اليوم يفرض تجديدًا وخلقًا جديدًا للأدوات الجماليّة تناسب حياة اليوم وتقدر على الوصول إلى قلب الإنسان وعاطفته وعقله ووجدانه ليتحقّق التأثير المطلوب في الإنسان فيفضي إلى تغييرٍ في الحياة يدفعها نحو مسارها الصحيح حسب التصوّر الإسلاميّ.

الخاتمة:

بعد عرضنا لآراء نقّاد نظريّة الأدب الإسلاميّ حول مفهومهم لوظيفة الأدب عبر مراحل النظريّة نجمل أهمّ النتائج التي توصّلنا إليها:

1. الوظائف الرئيسة للأدب الإسلاميّ هي:

أوّلًا: الوظيفة الاجتماعيّة: لعلّ أبرز وظيفةٍ للأدب الإسلاميّ هي الوظيفة الاجتماعيّة، فهو يتوجّه في خطابه عمومًا إلى الإنسان ويؤثّر فيه لإحداث تغييرٍ في حياته، لكنّ الوظيفة الاجتماعيّة قد تنتج عن أيّ نصٍّ أيًّا كان توجّهه، لذا علينا أن نجيب عن سؤال مهمّ أكثر دقّةً هو: ما طبيعة التغيير الذي يهدف إليه الأدب الإسلاميّ في الحياة؟ إنّه تغيير الواقع نحو الأفضل، فالوقوف عند الواقع كما هو أو تمجيده وتزيينه يرسّخ هذا الواقع بل قد يغيّره نحو الأسوأ، أمّا وظيفة الأدب الإسلاميّ فهي التغيير نحو الأفضل فهناك فرقٌ بين العرض الذي يقدّمه الأدب الإسلاميّ للواقع والرسالة التي يهدف إلى بثّها في أعماق المتلقّي؛ فعرض الواقع بمحتوياته المختلفة أدعى إلى إقبال المتلقّي إليه والإحساس بصدقه وتأثّره

3 الهجوم الذي تتعرّض له نظريّة الدب الإسلاميّ ليس له علاقةٌ بهذا، وإنّما هو سابقٌ لهذه الأعمال وموجّه إلى الرؤية النظريّة في المقام الأوّل.

به، لكنّ الرسالة التي يحملها الأدب الإسلاميّ هي تغيير هذا الواقع نحو الأفضل، وهذا الأفضل الذي يدعو إليه الأدب الإسلاميّ هو الأفضل وفق الرؤية الإسلاميّة ووفق انفعال المبدع بها وتعبيره عنها.

ثانيًا: الوظيفة الجماليّة: إنّ هذه الوظيفة تلبّي حاجة الإنسان الأصيلة إلى الجمال إبداعًا وتلقّيًا والإيحاء بصورٍ جديدةٍ للحياة، وهي من أهمّ وظائف الأدب فهي تكاد تكون ملتقى النظريّات والمذاهب الأدبيّة جميعها، وتحقّق هذه الوظيفة يعين على تحقّق الوظيفة الأولى، بل من الصعب أن تتحقّق الوظيفة الأولى من غير أن تتحقّق هذه الوظيفة، وتتحدّد هذه الوظيفة من خلال الرؤية الإسلاميّة للجمال.

ثالثًا: الوظيفة الذاتيّة: وهي السموّ بالروح والذوق والإحساس إبداعًا وتلقّيًا، وترتبط هذه الوظيفة في تحقّقها بالوظيفتين السابقتين ارتباطًا كبيرًا؛ فالإبداع ذاتيّ تنهض به ذاتٌ متفرّدةٌ تشبّعت بالفنّ والجمال وامتلكت رؤيةً مميّزةً فاستثمرت الفنّ والجمال في التعبير عن رؤيتها التي تستند إلى التصوّر الإسلاميّ للوجود والحياة والمجتمع، كما أنّ التلقّي فرديٌّ أيضًا في المقام الأوّل ثمّ يتحوّل التأثّر الفرديّ إلى تغيّرٍ اجتماعيّ.

2. تشترك نظريّة الأدب الإسلاميّ مع بعض النظريّات والمذاهب الأدبيّة الأخرى في الوظائف الرئيسة للأدب من جهة التسمية والعنوان، فالواقعيّة الاشتراكيّة ترى وظيفة الأدب في التغيير الاجتماعيّ، إمّا من خلال عرض الواقع فحسب وإمّا من خلال تقديم رؤيةٍ لهذا التغيير، لكنّ طبيعة التغيير الاجتماعيّ الذي تهدف إليه الواقعيّة الاشتراكيّة يختلف عن طبيعة التغيير الاجتماعيّ الذي يهدف إليه الأدب الإسلاميّ تبعًا لاختلاف الرؤية التي يصدر عنها كلّ أدبٍ منهما.
كما أنّ الواقعيّة الاشتراكيّة لم تهتمّ بالوظيفة الذاتيّة بل كان كلّ تركيزها على الوظيفة الاجتماعيّة، أمّا الرومانسيّة فقد اهتمّت بالوظيفة الذاتيّة وابتعدت عن الوظيفة الاجتماعيّة، وتكاد تكون الوظيفة الجماليّة ملتقى النظريّات جميعًا، لكنّ السرياليّة اتّخذتها وظيفةً وحيدةً ورفضت الوظائف الأخرى، فالأدب الإسلاميّ يلتقي في موضوع الوظيفة التقاءً جزئيًّا مع

النظريّات والمذاهب الأدبيّة الأخرى، وينفرد بموازنته بين الوظائف المتعدّدة من جهة وفي طبيعة تحقّق هذه الوظائف من جهةٍ أخرى.

3. هناك كثيرٌ من الآثار التفصيليّة التي يُحدثها النصّ الأدبيّ على المستوى التربويّ والنفسيّ والسياسيّ والتاريخيّ وغير ذلك، وهي تتفاوت في ظهورِها من نصٍّ لآخر تبعًا لعوامل كثيرةٍ، لكّننا نميل إلى اعتبارها آثارًا تابعةً لوظائف الأدب الرئيسة وليست وظائف مستقلّةً عنها.

4. نرى أنّ نظريّة الأدب الإسلاميّ في الفترة الثانية بعد عام 1990 م قد اهتمّت ببلورة رؤيةٍ واضحةٍ لوظيفة الأدب، ونلاحظ تركيز نقّادها في هذه الفترة على الوظيفة الجماليّة إلى جانب الوظيفتين الاجتماعيّة والذاتيّة.

الحواشي:

1 انظر رنيه وليك وآوستن وآرن: **نظريّة الأدب**، تر: عادل سلامة، دار المريخ، الرياض، السعوديّة، ط 3، ص 43 – 46.

2 انظر رنيه وليك وآوستن وآرن: نظريّة الأدب، ص 55.

3 انظر سيّد قطب: **في التاريخ فكرة ومنهاج**، دار الشروق، القاهرة، ط8، 2001، ص 16 – 19.

4 انظر نجيب الكيلاني: **مدخل إلى الأدب الإسلاميّ**، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في قطر، قطر، سلسلة كتاب الأمّة، الإصدار (26)، ط1، جمادى الآخرة\ 1407 هـ، ص 28–33. وانظر نجيب الكيلاني: **الإسلاميّة والمذاهب الأدبيّة**، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1987، ص 14 – 16.

5 انظر أبو الحسن علي الحسيني الندوي: **نظرات في الأدب**، سلسلة أدب الأطفال2، رابطة الأدب الإسلامي العالميّة مكتب البلاد العربيّة، دار البشير، عمّان، ط1، 1990، ص 105.

6 انظر نجيب الكيلاني: **تحت راية الإسلام**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1982، ص 79 – 81.

[7] انظر سيّد قطب: في التاريخ فكرة ومنهاج، ص 16 – 19.

8 انظر محمّد قطب: **منهج الفنّ الإسلاميّ**، دار الشروق، القاهرة ط6، 1983–1403 هـ، ص 57.

[9] انظر عماد الدين خليل: **مدخل إلى نظرية الأدب الإسلاميّ**، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط 1، 2007، ص 169 – 173.

[10] عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلاميّ، ص 173.

[11] انظر عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلاميّ، ص 174، 175.

12 انظر عماد الدين خليل: مدخل إلى نظرية الأدب الإسلاميّ، ص 175 – 180.

13 سورة الشعراء، الآية (225).

[14] انظر أحمد الرفاعي شرفي: **مقالات الإسلاميين في الأدب والنقد**، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2009، جـ 2، ص 49 – 51، مقالة "انهيار الحضارات في الأدب الإسلامي" محمّد إقبال عروي.

15 أحمد الرفاعي شرفي: مقالات الإسلاميين في الأدب والنقد، ج2، ص 49.

16 البخاريّ (أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاريّ، ت 256 هـ): **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**، تح: محمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة الدليل، الجبيل الصناعيّة، السعوديّة، ط4، 1997، جـ 4، ص 324.

17 انظر شلتاغ عبّود: **الملامح العامّة لنظريّة الأدب الإسلاميّ**، دار المعرفة، دمشق، ط1، 1992، ص 174 – 178.

18 انظر محمد أبو بكر حميد: **نحو تفسير إسلاميّ للأدب دراسات نقديّة في الأدب الإنسانيّ عربيّا وعالميّا**، دار طويق، الرياض، ط1، 2006، ص 20.

19 انظر وليد قصّاب: **من قضايا الأدب الإسلاميّ**، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2008، ص 33 – 34. وانظر وليد قصّاب: **الوسطيّة في منهج الأدب الإسلاميّ**، سلسلة روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة في الكويت، الكويت، الإصدار (57)، ط1، شوال\ 1433. أيلول\ 2012، ص 91 – 97.

20 انظر إسماعيل المشهداني: **علم الأدب الإسلامي**، سلسلة روافد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة في الكويت، الكويت، الإصدار (69)، ط1، شوال\ 1434. أيلول\ 2013، ص 52.

21 وليد قصّاب: الوسطيّة في منهج الأدب الإسلاميّ، ص 95.

22 انظر نصر الدين دلّاوي: **الأدب الإسلاميّ وإشكاليّات النقد الحديث**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة في الكويت، الكويت، سلسلة روافد، ط1، الإصدار (107)، شوال\ 1435. آب\ 2014 ص 51.